بعد المخاض العسير الذي تحدثت عنه كونداليزا رايس:

الخطاب الطائفي يتحول الى خطاب قومي وصورة ناصر الى جوار نصر الله

محمود قرني*

■ بعد المخاض العسير الذي تحدثت عنه السيدة كوندوليزا رايس وزيرة الخارجية الأمريكية، وبعد مضي اكثر من ثلاثة أسابيع على نشوب الحرب الصهيونية الشاملة على لبنان نستطيع أن نقول لها:

«مبروك جالك شرق أوسط جديد».

وأنا لا أتصور السيدة «كوندي» هي القابلة التي ولد على يديها هذا الشرق العسير المشوه، بل أتصورها أخطأت خطأ جوهريا في المجازات المرسلة التي هيأت لها أن حبوب اللقاح المزورة التي تحملها في جيوب سترتها، يمكنها ان تتحول بالشرق الوليد من مرحلة الشيخوخة التي يعيشها الى قطوف المهد والبراءة الأولى أقصد العمالة في صورتها النقية!

فالشرق العجوز أنجب طفلة بيديه، لذلك كانت ملامحه صادمة لرقة وعذوبة السيدة «كوندي»، التي لم تتصور أن طفل الشرق «حزب الله» سيولد من رحم أمه لبنان وهو يحمل بين أسنانه بندقية، بينما لا زال يلثغ بمفردات غريبة من قبيل «المقاومة» و«الحرية» و«العدالة».

فمن حيث ما أرادت الولايات المتحدة أن تترك المقاومة اللبنانية بين فكي المارد الصهيوني ليقضمها قضمة الموت، فوجئ العالم بأسنان المارد الذي أغوته القوة المفرطة فاعتقد أنه الصياد الأبدي وأن أعداءه ما هم الا ضحايا تاريخيين، وما أرض الشام وما جاورها سوى تلك المصيدة التوراتية التي تتحدد أضلاعها بحدي النيل والفرات، ليتمكن جنود الرب من تأكيد النبوءة الصفوية الغبية.

يأتي ذلك في وقت هو الأكثر سوءا وانحدارا في الأوضاع العربية بعد أن احتلت الاستراتيجية العربية محلها الطبيعي في مقابر الصدقة، وصارت الحكومات وحكامها يسعون ـ فقط ـ للخلود في مقاعدهم وتوريث أبنائهم وتراجعت القضايا الأساسية التي التفت حولها الأمة وعلى رأسها قضية التحرير، فظلت سورية ولبنان وفلسطين ثم العراق في قبضة الاحتلال، ولم يتبق للشعوب العربية سوى المقاومة، سواء تمثل ذلك في نضالات الشعب الفلسطيني بطل طوائفه وجماعاته، أو مقاومة حزب الله الباسلة في لبنان، وكذلك المقاومة العراقية العاتية للاحتلال الانجلوأمريكي.

ومن ثم بدت تلك المقاومة ـ ذات الطابع الراديكالي ـ هي المعبر الحقيقي عن ارادات شعوب محبطة أوقفت الحروب ودخلت الى حقول التفاوض للبحث عن السلام المنشود، فلم تحصد سوى المرارات والخزي والتهميش وتفتيت الارادات، فلا تنمية تحققت ولا سلام تحقق، بل تأكدت الشقة بين الارادات العربية، وتهاوت الأدوار الجوهرية التي كانت تلعبها العواصم المؤثرة حتى وصلت الى حدود لا يمكن اقصاؤها عن فعل الخيانة بكل معانيه.

وكان بديهيا ـ في هذا المناخ ـ أن تلهث الجماهير خلف صورة البطل الغائب، تلك الصورة التي نالت منها الفظائع التي ارتكبتها أنظمة قلصت، بل أزالت، من قواميسها مفردة الوطنية ومرادفاتها، وليس من الغريب أن نتوقع لهؤلاء أن يبكوا ملكهم ـ عما قريب ـ كالنساء، كما بكاه الأمير «أبي عبدالله الصغير» على أطلال غرناطة لكنه البكاء الذي لن يفيدنا، كما لن يفيدهم بالتأكيد، فهل كان التزاوج الحاصل الآن بين صورتي حسن نصر الله وجمال عبدالناصر محاولة انقاذ أخيرة؟!!

«في 28 ايلول (سبتمبر) 1970 توفي جمال عبدالناصر بجلطة في الشريان التاجي، كان هذا اليوم يوافق 29 رجب سنة 1390 هجرية، وهو يوم مبارك في التقويم الاسلامي، فهو غداة اسراء الرسول صلى الله عليه وسلم، من المسجد الحرام في مكة الى المسجد الأقصى في القدس حيث عرج هناك الى السماء، وقد أكد هذا التوافق صورة عبدالناصر في ذهن الشعب كولي من أولياء الله الصالحين».

هكذا تتحدث باحثة مرموقة هي «نجلاء أبو عز الدين» عن عبدالناصر في كتابها المهم «عبدالناصر والعرب» الذي ترجمه يوسف سعيد الصباغ وصدر في بداية عقد الثمانينات، من القرن الماضي.

وما تشير اليه الباحثة ـ رغم تنافيه مع كل عقل علمي ـ يعكس الصورة الحقيقية في الضمير العام لزعيم يرتقي مرتقى النبوة، ويجلس في استرخاء على مقاعد من أهالوا عليه التراب، وهو حنين تستعيده الأمة، كما استعادته أقلام غير محصورة في الأيام القليلة الماضية، لسببين جوهريين أولهما الاحتفال الافتراضي الذي لم تفعله مصر بالعيد الخمسين لتأميم قناة السويس كواحد من أعظم أعمال ممارسة السيادة المطلقة على الأرض والمال والعرض بعد زمن طال أمده تحت وطأة الاحتلال العثماني ثم الفرنسي فالانكليزي، وثاني هذه الأسباب هو ذلك الخزي الذي شعرت الأمة بعد تخلي العواصم العربية الكبرى عن «حزب الله» كأحد المعاقل القليلة الباقية الدالة على وجودنا، وذلك بعد أن تحولت مفردة «المقاومة» الى مفردة ممجوجة، وربما طالب هؤلاء الحكام بتطهير قواميس العربية من مثل تلك المفردات، التي هي مجلبة للفوضى وللغضب الأمريكي في نظرهم.

وقد تصاعدت نوستالجيا هذه الذكرى لعقد مقارنات واسعة ومعمقة بين شخصية ناصر، وشخصية حسن نصر الله الأمين العام لحزب الله، وهي مقارنات لم تعبأ ـ بالطبع ـ بما قالته السيدة هدى عبدالناصر في مكتبة الاسكندرية عن تباعد الشقة بين والدها وبين الأمين العام لحزب الله.

وأظن أن مدى تطابق ودقة المقارنة لا يعنيان شيئا البتة بالنسبة للزعيمين، كما لا يعنيان الكثير بالنسبة لمواطن هذه الأمة المعاصر، غير أن الالحاح على عقد المقارنة يؤكد معنى أوليا لا خلاف عليه، هو حاجة الأمة لمن يقودها وهو تصريح غير ملتبس واجماع شعبي غير مسبوق على أن الحكام العرب لا يمثلون هذا البطل ولا يملكون في صُرتهم ما يشي بأنهم مقبلون في الطريق الى البطولة.

وقد يعضد هذا التصور، التأمل السريع لمبادئ ثورة يوليو الستة وكيف آلت أوضاعها في اللحظة الراهنة، فقد انطلقت الثورة في طريق القضاء على الاستعمار والقضاء على الاقطاع، القضاء على الاحتكارات وسيطرة رأس المال على الحكم، تحقيق العدالة الاجتماعية، خلق جيش وطني قوي، واقامة حياة ديمقراطية سليمة، وهذه المبادئ التي انهارت انهيارا كلياً ـ على الأقل في مصر ـ تحتاج الى ثورة جديدة لكي تعيدها من بطون ناهبيها، دون المساس بما على الناصرية من مآخذ جوهرية أعاقت تطور التجربة من داخلها.

غير أن اللافت في المواجهة الأخيرة التي تدور رحاها في عاصمة من بين أهم عواصم الثقافة العربية أنها وجدت بين «المارينز» الثقافي من يهيل التراب على منجزها ويعيد انتاج خطابات رسمية عربية تقع ـ بالضبط ـ موقع الخيانة دون جدال، تحت يافطات بغيضة وكريهة الرائحة، غير أن هؤلاء المارينز مع خطباء وفقهاء السلطان لا بد أن يبحث كل منهم عن بطانة تبريرية، بحيث يمكنهم خلق مرجعيات تعضد ما يذهبون اليه، وسوف نجد المرجعيات الدينية وقد حشدت ـ خلف فتواها ـ جيشا جرارا من الآيات والأحاديث، مثلما فعلوا في العام 2003 عندما أصدروا فتاواهم التي تبيح الاحتلال الأمريكي للعراق، كذلك سنجد نوعا آخر من الفتاوى يستند على فشل الدولة القومية العربية في انجاز مشروعها، وهو سبب كاف ـ في نظر هؤلاء ـ لخيانة أوطانهم في مخادع الرأسمالية المتوحشة التي تردنا مع آخر تقاليع الليبرالية الغربية.

ومن ثم لم يكن غريبا أن نقرأ تلك المقالات التي تحل دم حزب الله، وتبرر دفنه حيا، خوفا من «المستقبل الشيعي الغامض» للمنطقة، تأسيسا على انه لا يصح للعلماني الليبرالي في كل الحالات ان يدعم حزبا دينيا، فهم يرون أن الحزب لا يملك سوى مرجعية الصراع الدامي بين «البيت المرواني» و«البيت الهاشمي».

واذا كان الطموح لاقامة دولة ليبرالية عربية تغاير في أسس قيامها تلك النزعة الشمولية التي ميزت الحقبة الناصرية وقريناتها القومية، فانه ـ بالقطع ـ مطلب يجب أن تلتف حوله الجماهير العربية مدعومة بنخبها التي تدافع عن هيكل الدولة الوطنية، الا أن الخطاب النقيض لا يعني بالضرورة القاء الآثام والقاذورات التي ميزت التاريخ الاستعماري كله على كاهل تلك الدولة، فحركات المقاومة الموصومة من هؤلاء في لبنان وفلسطين بسبب مرجعيتها الدينية تظل منطلقاتها الوطنية نموذجا مختلفا أشد الاختلاف عن جماعات العنف الاسلامية التي نشأت في فراغات الدولة العربية المنهارة غير الفاعلة، ويبدو رفض الدولة العربية من هذا المنطلق جليا لدى جماعات مثل القاعدة، وكذلك التيارات الاسلامية التي اعتمدت العنف وحده كسبيل لتغيير المجتمع مثلما حدث في مصر مع جماعات الجهاد والجماعة الاسلامية والتكفير والهجرة، وغيرهم.

فقد كان الطرح الأممي لهذه الجماعات يعتمد على مرجعيات شبه فاشية ترى في الكون أحقية مطلقة، وفي الأرض متسعا للدعوة والاخضاع المطلق لها، سواء كان ذلك بالأسوة الحسنة أو بغيرها، وعلى النقيض من ذلك ولدت جماعات المقاومة الاسلامية التي تميزت بدرجة أكثر راديكالية من الحكومات السياسية التقليدية، بحيث بدت بشكل دائم على يسار تلك الحكومات، غير أنها حددت أهدافها ـ حصريا ـ في تحرير التراب الوطني والحفاظ على استقلاله كاملا، في الوقت نفسه لم تطرح أية أبعاد لكونية الدعوة أو عالميتها أو فرضها بالسيف أو ما شابه ذلك من طروحات.

وأتصور أن العارفين بخارطة السياسة العربية، يدركون حجم الدور الخطير الذي لعبته الحكومات في تحويل بلدانها الى اقطاعيات ريعية بلا عقل ولا تنمية، ومن ثم انصرفت الجماهير بشكل كبير الى شؤون لها علاقة بتعظيم الوجود الفكري الميكافيللي، الذي ترسخ له العلاقات الليبرالية داخل الكتلة الرأسمالية في الولايات المتحدة، لكنها لعبة سرعان ما تكشفت بعد الانهيارات المجتمعية المتلاحقة فعادت الجماهير خالية الوفاض ولا تحمل تحت ابطيها ـ وعلى الطريقة العربية ـ سوى خفي حنين.

من هنا تعاظمت الخطورة الحقيقية التي باتت وشيكة التحقق على اسرائيل، تتبدى في الانتصارات المتوالية التي حققتها المقاومة اللبنانية والفلسطينية على السواء، ثم تكلل هذا الوعي بتاريخ الى انتصار شبه نهائي لحزب الله في حرب شاملة وعاصفة وغير انسانية تقودها اسرائيل ضد لبنان، وما استمرار الحرب حتى الآن ـ حسب كثير من المحللين ـ سوى لاتاحة الفرصة لاسرائيل لتحقيق نصر جزئي يتم الترويج له ثم تحل القوات الدولية والمفاوضات غير أن ذلك يبدو أنه غير متاح حتى في حدوده الدنيا، رغم القوة القاهرة للجيش الاسرائيلي.

وما من شك أن تحقيق نصر من هذا الحجم على اسرائيل عبر حركة مقاومة وغير نظامية من شأنه أن يحقق انقلابا على مستويين أساسيين أولهما المستوى العسكري حيث نجحت الحرب في تدمير نظرية الردع والأمن الاسرائيليتين والي غير رجعة، وعلى المستوى السياسي فان أخطر ما يمكن أن يتحقق هو سقوط الهيبة والشرعية التي منحتها الشعوب العربية لحكامها وانكشاف العمل الخياني والفاضح من المقاومة وقضايا الأمة التي كانت تمثل خطاً أحمر لا يستطيع أيا كان التراجع عنه وهو ما يعني أن ثمة هبات شعبية في بعض البلدان يمكن أن تطيح ببعض هذه الأنظمة الفاعلة، وربما حولت انتفاضات الشعوب الى عمل مقاوم يعضد المناضلين في خطوط المواجهة.

ومن ثم فان ولادة الشرق الأوسط الذي تدعو وتتفاءل به السيدة رايس لن يكون ـ في كل الأحوال ـ كما تبغي له، شرقا مخصيا، يتخلى عن مسلماته، بل عن أسباب وجوده، بما في ذلك هويته بل على العكس تماما، سينهض شرق أكثر شراسة وأكثر بسالة في استعادة هويته وربما ايضا تحقق ما هو أسوأ لنا ولهم بنمو جماعات التطرف والتكفير واستعادتها للمبادأة وساعتها لن ينفع البكاء على اللبن المسكوب.

ان الذين ذهبوا الى تلك المقارنة المحقة المكتظة بالحنين بين ناصر وحسن نصر الله، لا يعدمون الوسيلة لتقديم الاستشهاد تلو الآخر عن تلك العلاقة الوثيقة بين نقاء جوهر هذين القائدين وبين شرفهما العسكري والسياسي والانساني، وذكائهما وحضورهما الفذ في لباس يعكس خلافا جوهريا في منطلقات كل منهما، وهذا ما أدركه ـ بحصافة ـ زعيم حزب الله، لذلك لا يكاد يخلو حديثه من التصريح بأن انتصار الحزب هو انتصار لجماع طوائف الأمة مسيحيين ومسلمين وغير ذلك، وهي محاولة لاستعادة البريق والبعد القوميين للمعركة على نفقة البعد الطائفي الذي يمثله نصر الله وجيشه المغوار.

وعلى هذا المستوى يقترب الخطاب اللبناني المقاوم من الخطاب الناصري الذي أسس لاستعادة الصوت الخاص بالمعنيين الفردي والوطني، فأصبحت مصطلحات الحرب، والتنمية، والديمقراطية والوطنية، مصطلحات مشحونة بدلالات لم يستبق اليها الشرق، حيث قامت دولة ناصر على العزة والكرامة والشرف والتكافل والعدالة، والمضامين الاجتماعية الخلاقة، بعيدا عن كافة النعرات المذهبية والطائفية، وهو ما يجب ان يدركه هؤلاء من ميليشيات أجهزة المخابرات المأجورة والعميلة، وصنائع الحكام الذين خانوا الأمة في أعز ما تملك.

* شاعر وكاتب من مصر

المدنيون ورقة اسرائيل الخاسرة في حربها السادسة!

د. هاني العقاد*

■ لم يتمكن المدنيون اللبنانيون من تجميع ما يلزمهم من حاجيات من بعض الأغذية والأغطية للنزوح من قراهم خوفا من قذائف وصواريخ الموت الاسرائيلي، اعتقدوا انه ما زال هناك قانون أخلاقي علي الأقل لحمايتهم زمن الحرب وكأنهم بالفعل أدركوا أن القوانين الأممية الدولية لم تعد صالحة للمدنيين العرب فلم يسمعوا منذ بداية الحرب أي ادانه أو استنكار خجل حتى لو كان اعلاميا لما يحدث علي الأرض من تدمير بنية تحتية مدنية وقتل للأفراد والسكان وقصف للأسواق والشاحنات ومصادر المياه والكهرباء والطرق البرية والجسور والموانئ. والغريب أن بعض دول المجتمع الدولي طالبت بممرات آمنة لنجدة هؤلاء المدنيين وانقاذ ما يمكن انقاذه الا أن اسرائيل لم تسمح بذلك. حقيقة الأمر ان اسرائيل ترتكب جرائم حرب مقصودة ومخطط لها جيدا والأغرب أن مجلس الأمن والأمم المتحدة يعرفان ذلك ولكنهما أجازا ذلك ضمنياً عندما استخدمت الولايات المتحدة حق النقض (الفيتو) ضد اصدار قرار ادانة وشجب للاجتياح الاسرائيلي للبنان ليبقى معروفاً لدى الشعوب ان المنظمات والهيئات الأممية خلقت لحمايتهم، لكن الأمين العام للأمم المتحدة يخرج بابتكار جديد مساند لهذه الحرب ويقول ان على حزب الله تسليم الجنود الأسرى للحكومة اللبنانية ووقف دك المدن الاسرائيلية بالصواريخ والبدء بتنفيذ القرار 1559 باخلاء شريط حدودي بعمق منظوري اسرائيلي بالجنوب اللبناني، ولو تفحصنا هذه المبادرة لكانت بالفعل الورقة الاسرائيلية المقدمة شفهيا، وماذا بعد ذلك ...؟ أي امضي اسرائيل فيما أنت فيه دمري كل ما يمكن تدميره اقتلي، وشردي كل سكان قرى الجنوب اللبناني حتى شمال نهر الليطاني. لم يقرأ هذا الطفل اللبناني من بلده عيترون ما بين السطور بشكل صحيح ولكنه فهم أن نزوحهم الى الجنة أو الى قانا أخرى وكأنه كان يتوقع حدوث المزيد من الاستهداف للمدنيين وقتلهم، حيث ضرب النازحون من هذه البلدة الريفية وهم في طريقهم الي مكان أكثر أمنا من قريتهم. قتلت اسرائيل منهم 25 وأصابت الكثير أمام وكالات الانباء والفضائيات. فلم يكن يعرف هذا الطفل بعد درجة الانحياز العالمي لاسرائيل. لم يعهد هؤلاء الأطفال ما فعلته اسرائيل بالحرب الماضية لان آباءهم لم يحدثوهم بشكل مفصل عما حدث خوفاً عليهم من العيش في رعب وخوف ينعكس على صحتهم النفسية العامة، فقد كان ماض وأرادوه أن يضيع من ذاكرتهم الى الأبد انه ماض قد ضاع من ذاكرتهم وما عادت قانا الا ذكرى قد لا تتكرر لان المجتمع الدولي لم يصمت هذه المرة. يسير الموقف بشكل مشابه بكل تفاصيله الدقيقة في فلسطين، غزة فلم تتوان اسرائيل عن هدم بيوت المدنيين وضرب الجسور والطرق ومحطات المياه والكهرباء وقتل العديد من الأطفال والنساء، بل ونسخت صواريخ اسرائيل عائلات كاملة من الوجود بغزة. لم يبق سلاح محرم الا واستخدم من قبل الجيش الاسرائيلي لمواجهة المدنيين الفلسطينيين واللبنانيين عدا الأسلحة الجرثومية والنووية دون التفكير في قدرته التدميريه والهدف فقط استخدامهم كورقة ضغط على حركات المقاومة وليشكلوا حركات تمرد من داخل الجسد الواحد وتجابه حركات المقاومة ولا يعنيهم ان نشبت حروب أهلية أو غير ذلك، انها حرب قذرة بكل معاني الكلمات وبكل الروابط البشرية والآدمية. ان آخر الأسلحة التي استخدمتها اسرائيل في هذه الحرب المجنونة كانت في بلدة المغازى وبيت حانون فقد استخدم الفسفور الحارق بالقذائف المدفعية والصواريخ وأسلحة خاصة بالبتر مثل الديسكات البتارة والتي وجدت في أجساد الشهداء والمصابين حسب تقارير مستشفيات قطاع غزة. هذه الأسلحة تستخدم لحرق أجساد المدنيين الفلسطينيين ولن تترك الا العظام المتهتكة.

قانا من جديد، قتل بالجملة وارهاب دولة منظم ومدروس فلم يقنع ساسة اسرائيل بالقتل المتجزئ للمدنيين اللبنانيين وأرادوا المزيد من الخسائر بالمدنيين لدرجة أن لديهم قناعة أن من يقاتلهم الان هم المدنيون.

ان حقيقة الأمر أن اسرائيل قد أدركت مدى أهمية المسح الجوي عبر القصف بالصواريخ والقذائف الثقيلة كافة القرى بالجنوب اللبناني واعتقدت انها بذلك تستطيع النزول برا وتنظيف القرى المستهدفة من السكان والمقاومة فلا فرق بينهم من وجهة نظر اسرائيل العسكرية لاخلاء الشريط الحدودي ظناً منها أن هذا يشكل حماية لسكانها بالشمال. ان الذي يجب أن تعرفه اسرائيل والعالم بأن حماية المدنيين تأتي عبر احترام قوانين الحرب واحترام كل مدني والعمل على حمايته وقت المعركة ووقف المعركة ان لزم الأمر لحماية السكان المدنيين واخلاء جرحاهم وتزويدهم بالمؤن الى فترة ما حتى يتمكنوا من العيش، أليست هذه بنود القانون الدولي الانساني؟

ان ما وصلت اليه دولة اسرائيل من تقدم في مجال التسليح والوصول بصواريخها الى الأهداف بدقة فائقة يمكنها من الكشف بشكل دقيق عن عدد الأفراد في الملاجئ والتجمعات السكانية المدنية وهذا ما يؤكد لنا ان اسرائيل تعرف ما الذي تفعله بالضبط وأنها تستخدم المدنيين وقوداً لحربها القذرة لأنها لم تخض يوماً ما حربا نظيفة يحترم فيها الانسان المدني وتحترم فيها حقوق الانسان وتصان حياة البشر كآدميين.

ان ما فعلته اسرائيل في قانا للمرة الثانية هو جريمة حرب حقيقية ومخطط لها بشكل دقيق، فقد أحست اسرائيل أن قواتها لم تعد قادرة على احراز اى تقدم براً وتكبدت خسائر فادحة بالأرواح والمعدات ولم تعتد أن توقف الحرب من طرف واحد حينها أوعز للجيش من قبل ساسته بضرب المزيد من المدنيين اللبنانيين لأنها تعرف مسبقاً ماذا ستكون ردة الفعل العربي والغربي على ذلك. جاء رد الفعل مطابقاً لتوقعات ساسة اسرائيل بالفعل ومنت على العالم بتعليق العمليات العسكرية لمدة 48 ساعة وهذا الوقت الاضافي الذي يحتاجه القادة العسكريون لتغيير الخطط العسكرية على الأرض. لن تقف حرب اسرائيل المجنونة عند هذا الحد فساسة اسرائيل قتلة ومجرمو حرب ولديهم الاستعداد لارتكاب المزيد من المذابح ضد المدنيين وما فعله الجيش الاسرائيلي في قانا يفعله الان في كل مكان سواء بغزة أو لبنان.

ان هذه السياسة التي يعتقد ساسة اسرائيل أنها الورقة المؤثرة بالحرب والورقة التي سوف تحط من عزيمة المقاومة الفلسطينية واللبنانية، هي ورقة لصالح المقاومة والحق العربي وبالتأكيد انهم مخطئون لان اى حرب تبنى على استهداف المدنيين هي حرب خاسرة ولن تحقق اى نصر ومن المؤكد أن المقاومة التي خرجت من رحم ومعاناة الشعوب والتي لم ترحمهم آلة اسرائيل يوما من الأيام سيكتب لها الانتصار والمجد ولن تموت. هنا ابشر المواطن العربي الحر الابي ان الأمة العربية بخير وأنها قادرة على تلقين قادة اسرائيل درساً في احترام حقوق الانسان وكرامته وليعرفوا ان الاحتلال لن يقابل الا بالبارود والموت وأن أرضنا العربية عاصية على محتليها وليعرفوا أيضا أن التفاوض هو سبيل اسرائيل الوحيد ان اقتنعت الأجيال العربية التي عاشت وذاقت ويلات الحروب الاسرائيلية أن يعيش الاسرائيليون معنا بسلام والسلام الحقيقي المبني على الاعتراف بحقوق الغير والتوقف عن استخدام القوة أو التلويح بها كلما غرتهم قوتهم وغرهم تحالفهم الزائل مع القوى الكبرى بالعالم وليس السلام المبني على مصلحة طرف دون الآخر.

* اكاديمي وكاتب فلسطيني

لماذا لن يحصل تغيير داخلي على الامد القصير في سورية؟

د. محمد عجلاني*

سورية على غرار معظم الدول العربية، هامش المناورة والنقد فيها ضعيف جدا، والحوار بين السوريين شبه معدوم وخاصة من الناحية السياسية، والنظام فيها يعتبر نفسه انه معصوم من الخطأ وبأنه يحمل راية الصمود والمقاومة والنضال والتحرير ولا يحق لاحد ان يسأله عن الثروة وثروات البلد واين تذهب، ولصالح من، وفي اي قناة تصب.

والفرد فيها ماهم لصالح الدولة اي بمعنى آخر انه ملك للدولة فعندما يكون صغيرا ينتسب لطلائع البعث، وعندما يكبر قليلا يصبح في شبيبة الثورة، وعندما يكبر اكثر يتحول لصالح اتحاد الطلبة، وعندما يريد ان يبني مستقبله يتحول الى حزبي وبعثي نصير وعامل، وليزيد الامور تبجيلا وتكريما ينتسب الى الجيش ليصبح بمثابة الكرزة التي توضع على قالب الحلوى لتزيين الامور وتكملة المشوار حتى يصبح فعلا خادما مطيعا للدولة، منتسبا اليها بجسده وروحه ونفسه.

وهكذا نشأت الاجيال السورية وسط بوقة اعلامية تمجيد وتكبير وتهليل وتعظيم بمنجزات القائد والعائلة حتى لم نعد نسمع ان هناك تاريخا آخر لسورية، وان هناك اشخاصا آخرين كخالد العظم وشكري القوتلي ومنير العجلاني وعبد الرحمن الشهبندر ونزار قباني الذي نشاهده على التلفزيون ولكنه لم يقم ابدا في سورية، ومات في عاصمة الغربة لندن.

والمشكلة ان اي شخص في سورية يرفع صوته للمطالبة بتغيير وحتى تحسين الامور بدون التعرض الى سلطة وطبيعة النظام ينظر اليه بعين الاستهزاء والتحقير وبعدها اذا ازداد قوة ونفوذا ينعت بصفات التخوين والمتآمر على مصالح الشعب والوطن، ويحارب على جميع الاصعدة وخاصة المهنية اذا علمنا ان التوظيف هو في ايدي الدولة والجهاز الامني اي رزقة وعيش افراد الشعب في ايدي الحكومة وهي نفسها لن تساهم وتشجع القطاع الخاص لان فيه استقلالية للفرد عن جهاز الدولة.

تأميم الفرد لصالح الدولة هو الشعار المعمول به في سورية، اي الفرد هو الدولة والنظام ولا ينفصلان عن بعضهما البعض، وكما رأينا فانه عندما تعرض النظام لهزات «مليس» خرجت مظاهرات كل يوم وفي كل شارع، الدولة اصبحت في خطر، المجرم «مليس» يريد ان يقوض النظام ولماذا لا نخرج المظاهرات كل يوم عندما تحترق العواصم العربية المجاورة لسورية، بيروت وحزب الله ألا يستحقان مظاهرة شعبية سورية وفي كل ثانية؟

حتى المعارضة خلقها النظام وطورها وفق اسلوبه وبرنامج عمله وهي متمثلة بأحزاب ليس لها لا قواعد شعبية ولا مؤسساتية ولا حتى صحف ناطقة باسمها وهي مبعدة عن مؤسسات الدولة الرئيسية، التعليم والجيش وكل ما هنالك ان اعضاء هذه الجبهة التقدمية لهم رواتب وسيارات ومكاتب.

ولكن لماذا لا يتحرك المجتمع المدني فهذا الاخير شبه ملغى لصالح الدولة التي أممت هذا المجتمع كما اممت الفرد ونزعت عنه صفته التنظيمية، فحرية الاحزاب شبه ملغاة وعلى ارض الواقع لا يوجد اي تنظيم حقيقي نقول يوما ما انه سيستلم السلطة او سيكون له دور حقيقي في مستقبل سورية، البعث اولا واخيرا ولا قناة اخرى حتى ولو كانت تقدمية وتشيد بانجازات النظام ولا مكان لأي نقابة او جمعية حرة مستقلة لا تدور في فلك النظام او احدى قنواته.

المجتمع مختزل في الدولة والدولة هي كل شيء ولا يوجد الا مؤسستان في سورية ربما تشكلان بعض القلق للنظام وهما اولا المؤسسة العسكرية التي كانت وراء كل الانقلابات في سورية، لذلك لقيت اهتماما كبيرا من طرف الفئة الحاكمة، واحكمت السيطرة على جميع مفاصلها وقنواتها وفروعها الرئيسية والهامشية وترفيعات وترقية الضباط تحت السيطرة ومخابرات الجيش هي الاقوى والاشرس والاغنى في سورية.

ثانيا المؤسسة الدينية وهي موضوعة تحت الرقابة والسيطرة من المؤسسات التعليمية الى البرامج الى حركة ائمة المساجد الى الندوات الفكرية، ضابط الامن موجود في هذه الحلقات ان كان بشكل مباشر او غير مباشر، ولا يوجد اي تأثير لقوى المعارضة الخارجية من حيث التأثير والتواصل مع قوى المعارضة الداخلية، وتحالف خدام والبيانوني افقد هذا الاخير مصداقيته وديناميكية الخط الاستقلالي، وخدام لم يعارض الا عندما تعرضت مصالحه المالية للخطر ولم يفهم ان النظام استخدمه كما استخدم الآخرين لتمرير مخططاته في البقاء واستراتيجيته في الحفاظ على السلطة وانه كان مجرد ورقة عندما تنتهي مهمتها تلقى في سلطة المهملات.

ولكن الاخطر من كل هذا وذاك، ان هناك مصالح حقيقية لقوى خارجية واقليمية كاسرائيل تريد وترغب بان تزداد الامور سوءا في سورية حتى تكسر شوكة المعارضة والحكم، ويصبح لها هامش اكبر للتدخل في شؤون البلد واذا استمرت الاوضاع على هذا الشكل لا تستغربوا ان يلجأ الجيل القادم للمعارضين السوريين الى الاستعانة بالخارج كما فعل العراقيون وساعتها سيترحم اولاد هذا النظام الحالي على المعارضة السابقة وسيقولون يا ليتنا تفاهمنا معهم وقدمنا لهم التنازلات في الوقت والمكان المناسب في ساعة لا ينفع فيها الندم لان الهجمة الصهيونية والامريكية ستكون اكبر واشرس.

* رئيس مركز دراسات الحياة السياسية السورية في باريس

هكذا ننصر المجاهدين في فلسطين ولبنان

د. واصف منصور*

■ مع توالي المسيرات والوقفات التضامنية التي شهدتها مختلف المدن المغربية وفي مختلف الأقطار العربية والاسلامية، هذه المبادرات التي دعت اليها الأحزاب والنقابات ومنظمات المجتمع المدني أو خرجت بشكل تلقائي، تعبيرا عن وقوفها الى جانب الشعب اللبناني وادانة للعدوان الصهيوني والدعم الأمريكي والصمت الرسمي العربي، وهي مبادرات نضالية لا شك في نوايا الداعين لها والمشاركين فيها، ولا شك في أهميتها السياسية والمعنوية.

مع توالي هذه المبادرات، تذكرت ثلاث حكايات كان لها وقع آخر ومعنى آخر يستحق ان نوردها لعل ذلك يعطي اجابة على سؤال تطرحه الجماهير في كل مكان، عما يمكن فعله تجاه العدوان الصهيوني الأمريكي ولنصرة المقاومة البطولية في لبنان وفلسطين.

× الحكاية الأولى حدثت في مدينة سلا في شهر آذار (مارس) 1969 في احدى قاعات السينما، حيث كانت فرقة المسرح الوطني الفلسطيني تقدم مسرحية (شعب لن يموت)، واثناء الاستراحة بين فصلي المسرحية اقامت الجمعية المغربية لمساندة الكفاح الفلسطيني مزادا على كوفية فلسطينية، وكان الحضور يقدمون ما يحملون من نقود او خواتم او حلي. وفجأة انفتح باب السينما ودخل رجل موضوع في قفة جلدية ويزحف مستعينا بقباقيب خشبية، فأوقفنا المزاد وساد صمت رهيب في القاعة حتى وصل ذلك الرجل الى الخشبة فحملناه ووضعناه على الخشبة، واخرج من القفة صرّة وقدمها لنا، ففتحناها واذا بها مجموعة من القطع النقدية الصغيرة كان قد جمعها (كمتسول) في ذلك النهار، وجاء ليقدمها كمساهمة منه في دعم المجاهدين الفلسطينيين، مما أثار حمية الحضور وجعلهم يقدمون كل ما معهم من نقود وحلي.

× الحكاية الثانية حدثت في المعرض الدولي بمدينة الدار البيضاء اواسط السبعينات، حيث حضرت امرأة متقدمة في السن وقدمت لي الف درهم قائلة: ان هذا مساهمة مني في دعم المجاهدين. ولما أخبرتها أنني لا أتوفر على دفتر تبرعات لأعطيها توصيلا بالمبلغ، قالت: اذن اعطني بقيمته اشياء من التي تبيعونها.

× الحكاية الثالثة حدثت في معرض للكتاب بمدينة الرباط اواخر السبعينات ،حيث حضر رجل كبير في السن وأعطاني مئة درهم قائلا: أعطني بهذا المبلغ كتبا تتحدث عن فلسطين. فقلت له: اختر ما تشاء من الكتب، فقال. انا أمي لا أعرف القراءة والكتابة، فارجو ان تختار انت بنفسك الكتب التي تراها ضرورية لابنائي واحفادي كي يعرفوا ما يجري في فلسطين.

هذه الحكايات الثلاث تصبّ في نفس ما قصده الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما مر باعرابية عندها جمل أجرب وتقف أمام خيمتها رافعة يديها الى السماء متضرعة الى الله عز وجل ان يشفي جملها الأجرب، فقال لها: اجعلي مع دعائك قليلا من القطران، أي ضعي أولا القطران على الجمل ثم ادعي الله ان يشفيه.

وهذه الحكايات كلها تتوافق مع ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم (من جهّز غازيا أو خلف غازيا في أهله بخير، فقد غزا)، وقوله صلى الله عليه وسلم (مقام أحدكم في سبيل الله خير من صلاة ستين عاما خاليا، الا تحبون ان يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة؟ اغزوا في سبيل الله، من قاتل في سبيل الله فواق ناقة وجبت له الجنّة). وتتوافق مع قوله تعالى «مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة انبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة والله يضاعف لمن يشاء» وقوله تعالى «لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، وفضّل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما». صدق الله العظيم وصدق رسوله الكريم.

* كاتب من فلسطين